

## مفهوم الوعي الذاتي من الطفولة إلى الشباب من منظور الفلسفة وعلم النفس النهائي - دراسة تحليلية وصفية -

بقلم

د/ علي بن صالح الشايع

د/ وليد أحمد المصري

كلية التربية - جامعة القصيم - المملكة العربية السعودية



### ملخص

تعتبر مسألة الوعي الذاتي من أعقد المسائل التي تواجه الباحثين المتخصصين في الفلسفة وعلم النفس، نظراً لتعقيد مفهوم الذات وغموضه، فقد اختلفت العلوم الفلسفية وعلم النفس النمائي في تحديد مفهوم الوعي الذاتي وتفسيره.

لقد عملنا على تحليل مفهوم الوعي الذاتي للشخصية من الناحيتين الفلسفية والنفسية وذلك بدءاً من مرحلة الولادة وحتى مرحلة الشباب، وتطرقنا إلى دراسة الوعي الذاتي للشخصية ومراحل تكوينه، وأكدنا الدلائل الهامة لتكون الوعي الذاتي المتمثلة بالقدرة على تأمل الذات ونقدها ومحاسبتها لأفعالها وتصرفاتها.

وكذلك تطرقنا إلى أهمية التقويم الذاتي بوصفه مكوناً من مكونات الوعي الذاتي، ودوره في تحقيق التوازن الدينامي الفعال للشخصية.

إن القدرة الواضحة للتنظيم الذاتي بالنسبة للسلوك الأخلاقي تتجلى في الاستقلالية وضبط النفس والنشاط، إذ تبين أنه تتكشف في مرحلة الشباب مظاهر النشاط الأخلاقي، ويتكون التقدير الذاتي، وتحاول الشخصية إنجاز واجباتها الاجتماعية، وتعمل بما يعود بالنفع على الآخرين، وكذلك تمكنا، استناداً إلى المعايير الاجتماعية - النمائية، أن نحدد ثلاثة مستويات لوعي الشخصية الذاتي.

### Abstracts

Self-consciousness is one of the problematic topics which face philosophy and developmental psychology specialists due to the complicatedness and ambiguity of the concept of the "self". The definition of the concept of the "self" differed in philosophical sciences and developmental psychology.

The researcher, in this study, analyzes the concept of self-consciousness from both the philosophical and psychological points of view starting from birth to adulthood. He, furthermore, studies the self-consciousness of the personalities and its stages. He also emphasizes the important implications of forming self-consciousness represented in the ability of self-contemplation, criticism, assessment. He sheds light on self-evaluation as a constituent of self-consciousness and its role in achieving the effective dynamic balance of the personality.

According to the ethical behavior, the ability of self-regulation is illustrated in self-independence, discipline and activity. The study shows that the ethical behavior features are revealed in adulthood and self-estimation is formed. As a result, personality tries to do its social duties benefitting others. The study also shows the ability of categorizing three levels of self-consciousness according to developmental, social criteria.

### الدراسة التحليلية لمفهوم الوعي الذاتي من منظور الفلسفة وعلم النفس النمائي أولاً: المقدمة:

يعتبر الوعي الذاتي من أكثر القضايا المألوفة في الحياة وأكثرها غموضاً، في الوقت الذي تجنب المتخصصون البحث بمسألة الوعي والوعي الذاتي لسنوات طويلة، وذلك عند دراسة الدماغ والعقل، وكانت النظرة السائدة أن العلم الذي يعتمد على مناهج موضوعية لا يستطيع استيعاب شيء بهذه الدرجة من الذاتية. لكن، ومنذ بداية الستينيات، بدأت تظهر أفكار جريئة تمثلت بالمدارس المعرفية التي تناولت العالم الداخلي للإنسان، وحاولت الغوص في عالمه الذاتي لمعرفة مكوناته ومكوناته.

إن من أشد أنواع الجهل خطورة هو جهل الإنسان بنفسه، فعلى الرغم من كثرة الدراسات النفسية والتربوية والفلسفية والاجتماعية، مازلنا عاجزين عن الغوص في عوالم النفس البشرية، هذا الصندوق المغلق الذي حاول العلماء والمتخصصون اللوح إليه، بعضهم اقترب وبعضهم ابتعد، إلا أننا لازلنا عاجزين عن معرفة خبايا النفس البشرية العميقة ومكوناتها.

إن الذات الإنسانية ليست كتلة جامدة، بل هي مفهوم متعدد المستويات،

وكلما تهيأ لنا أننا وصلنا القاع نجد أن هناك مستوى آخر للذات.

إن أفضل الاستثمارات هي التي نوظفها في معرفة أحوالنا الخاصة والوقوف على إمكاناتنا الكامنة، وحقيقة المشكلات التي نعاني منها، وتكوين مفهوم جيد عن الوعي الذاتي. (بكار، 2009).

لقد أجريت في علم النفس التربوي والنمائي عدد من البحوث والدراسات، كرسد لدراسة مسألة تكوين التقدير الذاتي بوصفه مكوناً تأملياً، والذي يعتبر مكوناً نفسياً أساسياً في المرحلة الابتدائية.

إن ظهور المكونات التأملية الجديدة يحدد القفزات والتطورات النوعية لتنمية التقدير الذاتي وصيرورته إلى الشكل الذي أطلق عليه العالم الكبير فيجو تسكي تقدير الذات "الأصيل أو الحقيقي" والذي يعكس درجة حاجتنا ومطالبنا لذواتنا ولنجاحاتنا ومواقفنا (فيجو تسكي، 196).

إن الوسيلة المثالية للتكوين الفعال لتقدير الذات هو الأسلوب الديمقراطي في التواصل في جو الأسرة الذي يحقق الاستراتيجية المتنامية للتأثيرات النفسية على الشخصية.

لقد درس أغلبية المتخصصين وعلماء النفس والفلاسفة مسألة تقدير الذات بوصفها منظومة معقدة لها مستويات متعددة بالنسبة للسمات السلوكية والانفعالية والمعرفية، والتي تملك خصائص الظاهرة التأملية المندرجة في نطاق مصطلحات الوعي الذاتي.

كما يوجد محدودان اثنان لتقدير الذات: "الأنا الواعية" وتمثل الخبرة البحتة، و"الأنا كموضوع" وهي مضمون هذه الخبرة. كما أن هناك شكلين أوليين لتقدير الذات الرضي عن الذات وتقبلها مقابل رفض الذات وعدم تقبلها (ليونتيف، 1975) يتكون تقدير الذات بوصفه صورة منظمة لإدراك ووعي "الأنا" نتيجة التفاعل المباشر والتأثير التقويمي للناس الآخرين.

إن سلوك الإنسان وخبراته هي التي تنمي في نهاية المطاف أسس وركائز شخصيته المتصلة بتقدير الذات، كما يرتبط هذا الأخير بالميدان الدفاعي للشخصية مكوناً ارتباطاً تجاه الشخصية يتفق وسعي الإنسان الدائم لتطوير إمكاناته

وشحذ قدراته وتنمية الوعي الذاتي عنده (كاتريش، 1994).

إن اكتشاف الذات في جانب الفكر، تعتبر هاماً لأن إدراكنا ووعينا لذواتنا والبيئة المحيطة بنا، والفرص المتاحة لنا والمشكلات التي تواجهنا، كل ذلك يحدث بفضل التفكير فينا وفيما حولنا.

### ثانياً: أهداف الدراسة:

تنطلق أهمية هذه الدراسة من تعقد مفهوم الذات وغموضه، فلا نزال في وقتنا الراهن نجد في الأدبيات الحديثة المتخصصة أن هناك خلطاً بين جوانب قضايا الوعي الذاتي في العلوم الفلسفية والتربوية والنفسية؛ ففي السنوات الأخيرة وجد أن مسألة الوعي الذاتي نالت قسطاً من الدراسة والبحث في العلوم الفلسفية والاجتماعية، وفي ميدان الدراسات الفلسفية التي تناولت الوعي الذاتي بالدراسة والتمحيص نجد أن المساهمة الأكثر أهمية في معالجة هذه المسألة تمثلت في أعمال (سبيركن.أ.غ، توغارفاف.ف.ب، كون.ي.س)، أما بالنسبة للدراسات النفسية فمن الضروري ملاحظة مسائل الوعي الذاتي في أعمال: (روبنشتين.ل.س، شوروخزي.ب.ع، تشاماتي.ن.ر، سوييفي.غ.أ، سافونكو.ي.م، نيمارك.م.س، بوجوفيتش وآخرين).

إن هناك أعمالاً ودراسات في العلوم النفسية والتربوية تكتسب أهمية كبيرة في هذه المسألة، غير أنها تتطلب مزيداً من البحث والتقييم الفلسفيين. إن تكون الوعي الذاتي للإنسان لم يولد معه، بل تطور في سياق التفاعل مع المجتمع وخلال عمليتي التربية والتنشئة الاجتماعية والتعليم والمشاركة في النشاط والممارسة العملية، ومن خلال عملية التنشئة الاجتماعية واستدخال القيم والمعايير الأخلاقية إلى عالمنا الداخلي.

وهكذا نجد أن الوعي الذاتي يكتسب خاصية اجتماعية، حيث إن مقياس علاقة الإنسان وصلته بنفسه يتوقف قبل كل شيء على دور الناس الآخرين والجماعات الأخرى.

إن مفهوم الوعي الذاتي لا يخص الفرد فقط، بل والجماعة والطبقة الاجتماعية، والوعي الذاتي يتكون في هذا المعنى عندما ترتقي الطبقة لفهم مكانتها في منظومة العلاقات الاجتماعية وقبل كل شيء العلاقات الإنتاجية الاجتماعية

وحتى إدراك مصالحتها وغاياتها وأهدافها.

ورغم التطور الهام في بحث مسألة الوعي الذاتي في الأدبيات العلمية المتخصصة، فلا تزال هناك مجموعة كبيرة من المسائل غير المحلولة هي قيد الدراسة والمناقشة نذكر على سبيل المثال نشأة الوعي الذاتي وظهوره كنتيجة لذلك، وتحديد مفهوم الوعي الذاتي نفسه، وكذلك نجد أن مسائل الوعي الذاتي الفردي لا تزال تحتاج إلى مزيد من البحث كتحديد مفهوم الوعي الذاتي الفردي، بنيته، وظيفته، علاقة الوعي الذاتي بوعي العالم المحيط وإدراكه، وترابط الوعي الذاتي الفردي بالوعي الاجتماعي، لهذه الأسباب مجتمعة تهدف دراستنا إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما هي المكانة التي يشغلها الوعي الذاتي بوصفها شكلاً خاصاً لوجود الوعي في نسق المظاهر الأخرى المكونة للشخصية؟.
- ما دور الوعي الذاتي في تكوين السمات الشخصية للإنسان؟.
- دراسة الوعي الذاتي عبر المراحل العمرية النمائية بدءاً من مرحلة الولادة وحتى مرحلة الشباب.

### ثالثاً: منهج الدراسة:

- اعتمدت هذه الدراسة المنهج التحليلي الوصفي لعدد من الأدبيات المتخصصة بمسألة الوعي الذاتي من الجوانب النفسية والفلسفية.
- المنهج الاستنتاجي.

### رابعاً: المناقشة:

#### 1) مفهوم الوعي الذاتي للشخصية

يرتبط المكون الأساسي للوعي الذاتي باللامح الانفعالية العاطفية وبالمظاهر التي يمكن رؤيتها بشكل ظاهري، ومن هنا تنشأ صعوبة دراسة ظواهر النفس البشرية ووعيتها، إن تطور مفهوم الوعي الفلسفي طبقاً لمستوى المعرفة العلمية والفلسفية يمر من مفهوم النفس إلى مفهوم الوعي واستخلاص مفهوم الوعي الذاتي من هذا الأخير (الوعي) ويمكن اعتبار سقراط المؤسس الذي بحث العالم الداخلي للإنسان، ومقدرة شخصية، فبالنسبة لسقراط تشكل معرفة الإنسان كشخصية وعضو في المجتمع القضية الأساسية في فلسفته.

إن الدعوة التي أطلقها سقراط " اعرف نفسك " كانت موروثه من الأساطير، لقد اهتم سقراط من وجهة نظر عملية: كيف يمكن للإنسان أن يكون سعيداً؟. ومن أجل أن يكون سعيداً يجب أن يعرف أين تكمن سعادته، ومن أجل معرفة ذلك يجب عليه أن يعلم من هو في حقيقة الأمر. وطالما أن مسألة تحقيق السعادة عند سقراط تحل بواسطة عملية المعرفة، فيمكن استنتاج أن المعرفة هي المحرك الأساسي لسلوك الناس، لقد بالغ سقراط في دور وقوة العقل البشري، بقدر ما بالغت الفلسفة المثالية. كما نجد بشكل مستديم أن تلميذه أفلاطون يقود هذه النزعة السقراطية حتى نهايتها المنطقية.

إن النفس الفردية والعقل عند أفلاطون تمثل جزءاً من العقل العالمي والمثل. ويمكن القول على مستوى المادية التأميلية العفوية في الفلسفة القديمة لم يكن بالإمكان شرح عملية الانتقال من المادة إلى النفس، وبالأخص فعالية الوعي الإنساني .

لقد جعلت الفلسفة المثالية مفهوم النفس والروح حقيقة مطلقة، وأعلنت هذا المفهوم كجوهر مستقل، وخلال صيرورة قرون عديدة بدءاً من أفلاطون نجد أن معالجة مسائل الوعي الإنساني أصبحت الشغل والههم الأساسي للفلسفة المثالية. أما رينيه ديكارت (1596-1650) فقد أدخل مصطلح "الوعي" في الفلسفة الأوروبية حيث شبه الجسد الإنساني بالآلة، وشرح كل حركاته على أساس التأمل، وبفضل هذا تمكن من رفض مفهوم النفس بوصفه مبدأ مفسراً. وبما أن وجود الوعي والكلام عند ديكارت أمر قطعي، وكذلك الأمر بالنسبة لوجود الجسد، لكن المبدأ الأساسي عند ديكارت يظل هو الوعي ذاته.

لقد أدخل مفهوم الوعي كجوهر مستقل عن الجوهر الأول الذي هو المادة. إن أساس الوعي من منظور ديكارت يتجسد في الوعي نفسه، حيث اعتبره جوهرًا قائمًا بذاته.

وبما أن الوعي معطى من الذات المتأملة التي تلاحظ تفكيرها، هذا يعني أن الوعي عند ديكارت يتجانس مع الوعي الذاتي في جوهر الأمر، رغم أن ديكارت لم يطلق هذه التسمية بعد، وهذا المصطلح غير موجود بالفلسفة. وعلى هذا

المنوال اعتبر الفرد والوعي الذاتي الأساس الأولي للوعي لأول مرة في الفلسفة الأوروبية.

لقد أصبح هذا الوعي الذاتي للوعي ممكناً فقط في عصر طريقة الإنتاج الرأسمالية وولادة المذهب الفردي البرجوازي (كرم، 1962).

لقد تابع جون لوك (1632-17.4) تأسيس وتطوير هذا الفهم بوصفه "حسًا باطنياً" أو تأملاً، فبرأيه الوعي عبارة عن إدراك ما يحدث عند الإنسان في عقله الخاص . إن هذا الإدراك ممكن بفضل تلك المقدرة الإنسانية مثل التأمل. لم يرفض لوك في حقيقة الأمر مادية العالم الخارجي ولا تأثيره على الوعي الإنساني "العقل"، لكن الوعي يوجد بقوانينه الخاصة، ولا يوجد أي أساس خارجي للتأمل مثلاً، لا يوجد دليل على ذلك.

إن معرفة ظاهرة الوعي مختلفة مبدئياً عن العالم الخارجي، وممكنة فقط عن طريق الملاحظة الداخلية الذاتية (التأمل) (العوا وآخرون، 1982).

كما قال . ليبينتز (1646-1716): "اعتقد أنه يكفيننا التأمل لكي نجد فكرة الجوهر في أنفسنا التي تعد جواهر" (بدوي، 1975، ص 165) لقد عبر ليبينتز بشكل مثالي عن فكرة التطور والتحول من ما هو جامد إلى ما هو حي، ومن اللاوعي إلى الوعي. إن الإدراك Apperception عند ليبينتز هو خاصية المناذرة<sup>1</sup> العقلية التي تعد أعلى مقدرة عند الإنسان وشرط لكل وعي راق. إن الإدراك يطابق التأمل "الأنا" وخاصيتها تعد ببساطة غير قابلة للقسمة. إن فهم ليبينتز للإدراك يماثل فهمنا للوعي الذاتي، ففيه يعكس الجانب الفعال للوعي، وقد أنكر أن يكون العالم الخارجي علة إدراكنا الحسية.

إن فكرة الإدراك بوصفها أعلى مقدرة للعقل تقبلها كانط من نظرية ليبينتز وقد أعاد صياغتها بما يتناسب مع عصره (1724-18.4) لقد عاش كانط وأبدع في عصر الثورات البرجوازية، وحسب تعبير ماركس فإن أفكاره كانت وفلسفته كانت

<sup>1</sup>. لفظ يوناني الأصل يدل على الوحدة أو الواحد أطلقه بعض الفلاسفة على العناصر البسيطة للوجود وتعني الذرات الروحية التي يتكون منها العالم والتي يتكون منها العالم والتي تتمتع بالإدراك وتتحرك بنفسها وتنبع كافة تغيراتها من باطنها وتعكس كل منها العالم المحيط.

الفلسفة الألمانية للثورة الفرنسية. " إن نظرية المعرفة عند كانط عبارة عن التمثيل الفلسفي لتلك الحقيقة التاريخية، وهي أن شخصية الزمن الجديد أصبحت لا تكتفي بالدور السلبي في وسط العالم المحيط، بل تصبح أكثر فعالية. إن نظرية كانط تمثل اعترافاً وإقراراً بأن الإنسان هو كائن يحس وموجود يفكر حتماً بكل ما يمكن أن يعد حقيقة بالنسبة له.

إن الإنسان يسيطر على العالم وهذا ما أراد أن يقوله كانت من خلال فلسفته. لقد توصل كانت إلى فكرة الوعي الذاتي بوصفها أعلى مقدرة للعقل من خلال المناداة العليا عند لينينتز التي تمتلك وعياً ذاتياً والتي تضمن وحدة الوعي . لقد احتفظ كانط أيضاً بتجزئة الإدراكات إلى إدراكات حسية Perception والتي تعد مقدرة غير فعالة للعقل على استقبال الانطباعات الحسية والعالية "إدراكات واعية" Apperception والتي تعد المقدرة على تنظيم وترتيب وتوحيد أبسط الإدراكات الحسية، وإيجاد أوجه التشابه والاختلاف .

وخلافاً لكانط، اقترب هيغل ( 177 - 1831) من بحث الوعي والوعي الذاتي ليس كشيء معطى مرة واحدة وإلى الأبد وكأنه هبة من الله، بل وفي نموه وتكونه، ولأول مرة في الفلسفة الأوروبية يبحث الوعي من موقع الديالكتيك والتاريخية . لقد أظهر هيغل أنه في صيرورة تطور وعي الإنسان بمفرده، يجتاز كل تاريخ خبرة الجنس البشري. إن كل إنسان يعيد إنتاج تجربة الإنسانية بأكملها وبشكل مختصر ( وايت، 1975).

إن الوعي الذاتي الذي يمتلكه كل إنسان من منظور هيغل عبارة عن وعي متشعب للفكرة المطلقة التي تحاول معرفة ذاتها عن طريق اغترابها في الطبيعة وفي الناس.

إن المعرفة الذاتية المطلقة " الروح الموضوعية" تبلغ ذروتها في الفلسفة عموماً وفي فلسفة هيغل خصوصاً (إمام، 1982) .

لقد قام ماركس (1844) بنقد الفهم الهيجلي للوعي الذاتي بصفته موروثاً، فقد دحض الفهم الهيجلي للإنسان ووعيه، ووعيه الذاتي بصفته اغتراباً وتشبيهاً للفكرة " إن موضوع الوعي بالنسبة لهيغل ليس شيئاً آخر، سوى الوعي الذاتي، أو أن الموضوع عبارة عن الوعي الذاتي المتموضع (ماركس، أنجلس، 1956)، لقد وضع



الإنسان والوعي في مستوى واحد.

لقد وقف ماركس ضد المطابقة بين الوعي والوعي الذاتي، وهو يزعم أن الوعي الذاتي يعتبر خاصية إنسانية محضه " ليست الطبيعة الإنسانية عبارة عن صفة للوعي الذاتي، بل على العكس الوعي الذاتي يمثل خاصية للطبيعة الذاتية، وللعين الإنسانية..." ( المرجع السابق، ص، 628) .

منذ وضع كلاسيكي الماركسية الفهم الفلسفي لجوهر الوعي والوعي الذاتي أظهرت صحة أفكارهم على أساس معطيات العلوم الطبيعية. ولأول مرة في تاريخ العلوم الطبيعية قدم الفسيولوجي الروسي (ساتشينوفا) فرضية تكون الوعي والوعي الذاتي القائمة على المبادئ المادية التي أكدت من قبل معطيات وحقائق علم الفزيولوجيا.

لقد أظهر لنا ساتشينوفا في بعض الأعمال التالية: "منعكسات الدماغ"، "فسيولوجية النشاط العصبي"، "لمن وكيف يوضع علم النفس"، "مكونات التفكير" أنه "في أساس ظاهرة الوعي الذاتي يتموضع الانعكاس المعقد". (ساتشينوفا، 1974، ص 131).

لقد أظهر ساتشينوفا أيضاً أن الوعي الذاتي ووعي العالم الخارجي يحدث في وقت واحد وبشكل متواز، وكشف أيضاً عن العلاقة بين الإحساس والتفكير (الأفكار): إن جذور التفكير عند الطفل متواجدة في الإحساسات (المرجع السابق، ص 163).

لقد تبين وبشكل مؤكد على أساس نظريته في الانعكاس أهمية الإحساسات العضوية وإحساس التحرك Kinesthesia (إدراك توازن الجسم ووزنه وموضعه وحركاته العضلية) في تشكيل المستوى الحسي للوعي الذاتي وعلاقته بالمستوى المنطقي، لقد كان لمبادئه وأفكاره تأثير كبير في العلوم الروسية وفي العلوم الغربية.

لقد كان لعالم اللغويات الروسي (بستينينا) أهمية قصوى حيث أظهر أهمية الكلمة واللغة في ظهور الوعي الذاتي: "إن الكلمة تشيء الفكر وتضعه أمامنا ولولا هذا العمل لم يكن بالإمكان نشوء الوعي الذاتي" (بستينينا، 195، ص 26).

إننا نعتقد في الوقت الراهن أن أفضل مدخل لمشكلة تفسير الوعي يتمثل في

التركيز على اكتشاف ما يعرف بالمتعلقات العصبية للوعي، أي ما يجري في الدماغ من صيورات تعتبر المسئولة مباشرة عن الوعي، فإذا حددنا مواقع الخلايا العصبية في القشرة المخية التي ترتبط جيداً بالوعي، وتعرفنا على أسلوب اتصالها بالخلايا العصبية الأخرى في أقسام الدماغ، فقد نتوصل إلى الفهم الأساسي لما يدعوه (تسالمرز) المشكلة الصعبة: ألا وهي الوصف للطريقة التي تنشأ بها الخبرة الذاتية انطلاقاً من هذه الصيورات (تسالمرز، 1997).

إذاً فالسؤال الذي يطرح نفسه للمناقشة ما المقصود بالوعي الذاتي؟.

في البحوث العلمية التي أجراها (سبركن) تحت اسم "الوعي والوعي الذاتي" تمت معالجة وبحث مقولة الوعي الذاتي في علاقتها الوثيقة بمقولة الوعي، ومثل هذا المنهج يعد شرطاً ضرورياً لتحليل مشكلة الوعي الذاتي بشكل عام. " الوعي الذاتي عبارة عن إدراك وتقويم الإنسان لأفعاله ونتائج تلك الأفعال والأفكار والإحساسات، والسمات الأخلاقية، والاهتمامات، والمثل، ودوافع السلوك، التقويم التام لذاته نفسها ولمكانته في الحياة" (سبركن، 1972، ص 148).

لقد قدمت (فرو لوبا) التعريف التالي للوعي الذاتي: " الوعي الذاتي هو عبارة عن فصل الإنسان لذاته عن العالم الموضوعي، إدراك وتقويم علاقته بالعالم، وعلاقته بذاته كشخصية، وعلاقته بأفعاله وتصرفاته، وتفكيره وإحساساته، ورغباته واهتماماته " (القاموس الفلسفي، 1986 ص 418).

الوعي الذاتي بشكل عام عبارة عن تجريد، وفي الواقع يوظف الوعي الذاتي دوماً كوعي ذاتي لذات معينة، بما أن الوعي الذاتي عبارة عن شكل محدد لوجود الوعي، فإن حامل الوعي الذاتي وذات الوعي الذاتي، كما هو حال الوعي بشكل عام، يمكن أن يعد المجتمع، والطبقة، الأمة، الجماعة الاجتماعية والشخصية.

ينظر إلى الشخصية التي تبحث بوصفها ذاتاً للنشاط الاجتماعي، وبوصفها نتاجاً معيناً لتطور المجتمع، حيث تعتبر موضوعاً للتحليل الفلسفي للوعي الذاتي، في هذه الحالة لا تؤخذ الشخصية بشكل معزول، بل وفي منظومة علاقات اجتماعية محددة.

يدرس علم النفس الوعي والوعي الذاتي بوصفه وظيفة للدماغ وعملية خاصة تحدث في الدماغ الإنساني والتي تكون مشروطة بالحياة الاجتماعية للناس، إن

الجانب النفسي في بحث الوعي الذاتي للشخصية يرتبط بشكل كبير بالفلسفة ويحتاج إلى الكشف عنه " إن خاصية الوعي الذاتي بوصفها عملية خاصة بالنفس البشرية والموجهة إلى تنظيم الشخصية لذاتها ولأفعالها في مجال السلوك والنشاط على أساس المعرفة الذاتية، والعلاقة الانفعالية العاطفية تجاه الذات (تيسنكوفا، 1977، ص5).

إن بحث الوعي الذاتي للشخصية في إطار علم النفس الاجتماعي وعلم النفس العام يتحدد انطلاقاً من المنهج الفلسفي لهذه الظاهرة، ويحلل الوعي الذاتي للشخصية بوصفه آلية خاصة لتنظيم العلاقة بين الناس.

ويبحث في إطار علم النفس النمائي سننيه تكون الوعي والوعي الذاتي في مراحل مختلف من التنشئة الاجتماعية للشخصية .

إن موضوع التحليل النفسي لوعي الشخصية الذاتي يعد بشكل عام : " جسدي ونفسي، أفعالي وتصرفاتي، دوافعي وأهدافي، وما يكمن خلف تلك الأهداف، والأفعال، معارفي ومهاراتي، قدراتي وإمكاناتي، علاقتي بالناس الآخرين، وكذلك علاقتي بنفسي، مكانتي في الحياة، وفي نهاية المطاف تكويني ونمائي (تشاماتا، 1965، ص 14).

بالنسبة لعالم النفس، تعد مواضيع تحليل الوعي الذاتي للشخصية وفق الشكل التالي: العمليات النفسية والفيولوجية وحالة الإنسان، تصرفاته، وأفعاله، معارفه ومهاراته

وإذا كانت الفلسفة وعلم النفس يصيغان مشكلتهما وأسئلتهما في عملية بحث الوعي الذاتي للشخصية المرتبطة بالجوانب الأساسية لنظرية الشخصية (عند ذلك تعد الفلسفة منهجية عامة للبحوث النفسية)، فإن التربية وعلم الأخلاق تبثان فقط جوانب منفصلة للوعي الذاتي.

## 2) بنية الوعي الذاتي للشخصية ومراحل تكوينه

يمكن عد المعرفة والعلاقة الاجتماعية بمثابة جوانب داخلية لبنية كل من الوعي والوعي الذاتي، كما تكون المعرفة الأساس والنواة الرئيسة ليس فقط للوعي الذاتي الفردي، بل وللوعي بشكل عام.

إن معرفة الذات لنفسها بوصفها ذات النشاط الحيوي تشكل أساس الوعي

الذاتي ومعرفة متنوعة جداً، حيث توجد عدة مستويات للانعكاس، فمن معرفة الحالات الفسيولوجية والعلاقات والأدوار الاجتماعية إلى معرفة الحالات والوقائع النفسية والمعرفة عن الذات بوصفها ذاتاً للتفكير.

ويمكن القول بشكل عام بأن المعرفة لا تختلف عن النفس بالكم والكيف وعن المعرفة بالعالم الخارجي تقريباً.

إن الشعور غالباً ما يسبق المعرفة، وإذا كان من الممكن تعريف الوعي بأنه معرفة + علاقة فإن الوعي الذاتي هو علاقة + معرفة.

إن الوعي الذاتي هو عبارة عن وحدة عمليات الشعور والمعرفة الذاتية، إنه يمثل علاقة محددة "للأنا" تجاه الذات نفسها. إن الوعي الذاتي عبارة عن ارتباط "الأنا" تجاه نفسها والموجهة لها في الشخصية الخاصة، وهذا حوار الشخصية مع تجربتها الخاصة (سبيركين، 1972، ص 141). إذا كانت العلاقة الذاتية تمثل نتاج استدخال الخبرة الحياتية السابقة للفرد والتي تتوسطها طبيعة علاقات الإنسان تجاه ذاته ومن خلال ذلك تجاه العالم الخارجي، فإن تقدير الذات يمس حصيلة تحليل أفعاله وإمكاناته على أساس العلاقة الذاتية مع الأخذ بالحسبان النتائج الواقعية لتحليل أفعاله.

وإذا كان الوعي بشكل عام، والوعي الذاتي الفردي يمتلكان مستوى حسياً، عند ذلك يكون وعي الإنسان بأكمله والمستوى الحسي للوعي الذاتي مرتبطاً بالتفكير المنطقي وذلك بفضل امتلاك اللغة وفهم الكلام.

إن بنية الوعي الذاتي بهذا الشكل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعملية تكون الشخصية والتناسق مع مراحل تكوينها، ومن أجل بحث نمو الوعي الذاتي سنأخذ ثلاث نقاط أساسية :

1. محتوى النشاط.
2. نطاق التواصل.
3. مضمون وبنية الوعي الذاتي على مستوى عمري محدد (كون، 1963).

يدخل الطفل منذ لحظة ولادته في علاقة مع العالم المحيط به، ويمكن البرهنة على أن المقدمات البيولوجية للوعي الذاتي في الشهر الأول بعد الولادة تعد بمثابة إحساسات غريزية عن العالم الخارجي، التي توجد عند الحيوانات والتي بدونها

تتعذر الاستمرارية في الحياة.

ولكن في كل هذه الإحساسات لا يوجد وعي ذاتي أصيل، ولا يوجد فصل بين "الأنا" و"اللاأنا"، ولهذا بالذات لا يعرف ما هو داخلي عما هو خارجي، وعلى العكس يمكن القول أنه بالنسبة له لا توجد قطعاً "أنا" الذاتية.

وعلى كل حال، إذا قلنا هذا أو غيره الأمر سيان، لذا فإن الحالة الانطلاقية للوعي لا تعرف التمييز بين "الأنا" و"اللاأنا"، ويقول (ريزفيسكي): يبدأ تطور الوعي الذاتي بالتحديد من إدراك الطفل لذاته الجسمية وتكوينه الفيزيقي الجسماني، وقد توصل إلى مثل هذه النتيجة كل من (تشياماتا، كونستينا).

ويعتقد علماء النفس الغربيون (جيمس، جانييه) أن التصور عن "الأنا" الجسمية والانا الفيزيكية قلما تظهر عند الطفل، والشئ المهم في هذا الصدد التجارب التي أجراها (انانيف) حيث اهتم بمسألة إلى أي حد يستطيع الطفل أن يفصل بين الشئ الخارجي وبين ذاته الجسمية، وقد بدا أن الطفل ذا العشر شهور، يجد الأشياء المخبأة في محيطه بسهولة، لكنه لا يجد الأشياء التي ترتبط بجسده مباشرة .

هذه التجربة تسمح حسب رأي "انانيف، 1961) بالتفكير بوجود عند الطفل إحداثيات محددة للحركة، ولكن لا يوجد بعد إدراك منظم وكامل للطفل بالنسبة لذاته "الجسمية" أو ذاته "الفيزيكية"، ولا يدرك الطفل أجزاء جسمه التي تعتبر أدوات للنشاط بشكل مباشر، ويقدر ما تمثله تلك الأدوات كونها وسائل خارجية بالنسبة للإدراك البصري.

يتعلم الطفل فصل ذاته عن الأشياء التي يستعملها في نشاطه الواقعي، ولهذا يفصل الإنسان في هذا الوقت وببساطة ويميز بين الإنسان والأشياء. إن النشاط في هذه المرحلة من نمو الطفل (وخصوصاً في عامه الأول)، يجب بحته بوصفه تقليداً ومحاكاةً، إنها تتلخص في المحاكاة اللاإرادية (العفوية) للمواضيع والاستجابات اللفظية للمحيطين.

ومن وجهة نظر تكوينية (وراثية)، فإن القفزة لتطور الوعي الذاتي عند الطفل، والانتقال إلى فصل ذاته بوصفه كلية، يكون مرتبطاً بنمو الكلام وخصوصاً مع استعمال اسمه الخاص (في البداية فقط يكون في صيغة الغائب).

لقد أوضح (ساتشينوفا) أنه في تحديد الذات بصيغة الغائب تتلخص الصيغة المبكرة للوعي الذاتي - الفصل بين ذاته وبين أفعاله.

تتمثل بداية مرحلة نوعية وجديدة للوعي الذاتي في لفظ الغائب، وهذا يعني انتقالاً من التصور إلى التفكير، وهذه المرحلة يمكن وصفها كإدراك ثابت لذاته الخاصة التي تظهر في نمط جديد للسلوك، ويكتشف الطفل نفسه بوصفه "ذاتاً فاعلة" مستقلة عن الراشدين .

إن فصل الطفل ذاته عن العالم المحيط، يحدث قبل كل شيء بوصفها حاملة للدرجات والأفعال التي تتناقض مع الشخصيات الأخرى بالنسبة لذاته. وهكذا نجد في المقام الأول "الأنا" الخاصة، أما موضوع الرغبة فهو غير محدد بدرجة معينة.

إن واحداً من شروط الوعي الذاتي الناجح عند الطفل يتمثل بتكوينه في إطار "الجماعة" ومن خلالها (الأسرة، دار الحضانة، الروضة...).

إن التغيرات الهامة والجوهرية في نمو الوعي الذاتي للطفل، تحدث مع التحاقه بالمدرسة:

أولاً: يلاحظ العالم (كون، 1963) أنه يتغير عند الطفل نوع النشاط الرئيس، حيث يحل التعليم مكان اللعب بصورة تدريجية.

ثانياً: اقتران هيبية الأبوين ونفوذهما بنفوذ المعلم وهيبته.

ثالثاً: يظهر عند الطفل دور الجماعات المرجعية كجماعة الأقران.

وتتغير أيضاً حجم العلاقات حيث تتزايد وتتشعب كم العلاقات مع الناس المحيطين، وتظهر أدوار جديدة تتطلب تقوية وتنمية قدرات الطفل وإمكاناته، وهذا بدوره يعمق تصور الطفل عن ذاته.

إن الوعي الذاتي والإبداع يتأثر بالبيئة الأسرية والاجتماعية والطبيعية التي يعيش فيها الطفل، وتدل الدراسات على أن الطفل يولد على درجة ممتازة من القدرة على الإبداع، حيث إن الأطفال، حين تكون أعمارهم بين الثانية والرابعة، يكون 95% منهم مبدعون لديهم قدرة على البحث العلمي عن طريق إمتارنا الأسئلة لماذا؟ كيف؟..

ولكن مع دخول المدرسة نطفى هذه الجذوة المتقدة ونستعيز عن ذلك

بأطفال خاضعين خاملين مقلدين محبين للنظام والطاعة، حيث بينت الدراسات إلى أن نسبة الأطفال المبدعين قد قلت إلى حدود 4%، ومع تقدم العمر لا يبقى سوى 2% (بكار، 2009).

لذلك وبمنظورنا، يعتبر الوعي الذاتي والتقدير الذاتى مبالغا فيها إلى حد كبير، لذلك فإن بحث التقدير الذاتي في المرحلة الابتدائية يظهر لنا أن مستوى تطور الوعي الذاتي غير مهم.

يشير تقدير الذات إلى تقبل الإنسان ما عنده تماماً أو رفضه، وقد يعني الرفض تمرداً ضد ما هو موجود في بنائه الشخصي، إن الإنسان الراضي عن ذاته هو شخص يشعر بأهمية ذاته وأهمية العمل الذي يقوم به.

ويرى روجرز أن الحاجة إلى تقدير الذات تنشأ مع نشوء مفهوم الذات وهو مكتسب ويعبر عن النزعة إلى تحقيق الذات، وتقدير الذات هو تقويم الطفل لخصائصه الشخصية، وهو المدى الذي يشعر فيه الشخص إيجاباً أو سلباً نحو جوانب معينة من شخصيته.

وفي دراسة قام بها د. محمد الشيخ حمود، برهن أن من أهم العوامل المؤثرة في تكوين التقدير الذاتي هو عامل اليقظة الاجتماعية حيث احتل هذا العامل المرتبة الأولى عند تلميذات المرحلة الابتدائية، والمرتبة الثانية عند أقرانهم الذكور لنفس المرحلة العمرية؛ وكذلك جاء عامل الثقة بالنفس في المرتبة الثانية لدى الإناث والأولى لدى الذكور، بينما جاء عامل النجاح والفشل في المرتبة الأولى لدى الذكور، والثالثة لدى البنات، كما جاء عامل المبادأة في المرتبة الأخيرة عند عيني الدراسة من الذكور والإناث، وربما يعزى ذلك - من منظور الباحث - إلى نوع التعليم الذي يقوم على الحفظ الصم الآلي وأساليب التلقين مبتعدين عن أساليب التفكير الحديثة القائمة على حل المشكلات وتنمية مهارات التفكير الناقد وتشجيع أساليب الحوار والمناقشة، مما يولد السلبية والنمطية في التفكير والخضوع في العلاقات الاجتماعية (حمود، 2002...).

لقد كشفت لنا أبحاث (اناناييف، بوجوفيتش، غورباتشيفي، سافونكا، ساقينا، بوداسين) أن التقويم الأولي للذات يبنى في الأساس على آراء المحيطين (الأهل، المربين، جماعة الأقران)، وهذا لا يعتبر تقويماً للذات بالمعنى الحرفي للكلمة، بل

وشكل بسيط من أشكال ما قبل التقييم.

إن إدراك الطفل لسلوكه يتم عن طريق التقليد والإيحاء الانفعالي، **Emotional Suggestion** إنه يمتلك طبيعة بسيطة غير مدركة (غير واعية) وهذا غير مرتبط هنا بفصل ذاته بوصفها ذاتاً مستقلة للنشاط، لكن هذا التقييم السطحي يوجه الطفل وينشطه، وهذا يؤدي إلى إدراكه ووعيه لنجاحاته وأشكال فشله وإخفاقاته في ميدان التعليم، كما يدفعه إلى النشاط المستقبلي.

يتوضع التقييم الايجابي (البسيط) في أساس التقييم الذاتي، وفي أساس التوافق الانفعالي، وهذا يخلق الظروف الملائمة من أجل التحفيز المستقبلي لنمو الشخصية، وفي الوقت ذاته يؤدي التقييم السلبي البسيط بالمرهق إلى عملية مؤلمة، حيث يبالغ في تقويم شخصيته، وتتكون خلفية عاطفية غير مناسبة، وتخلق مقدمات غير ملائمة لنمو شخصية المرهق في المستقبل المنظور.

إن المؤشر الهام لتكون الوعي الذاتي **Self-Consciousness** يتمثل بالقدرة على تأمل الذات **Introspection** ونقد الذات **Self-Criticism** ومحاسبتها على أفعالها وتصرفاتها، وهذا يعني القدرة على ضبط الذات **Self-Control**.

لقد درس كل من (سوييف، مالتسيفا) تكون مهارات الضبط الذاتي عند تلاميذ المرحلة الابتدائية، وتوصلا إلى نتيجة مفادها أن الضبط الذاتي قضية ممكنة في حالة وجود معارف محددة وخبرات ومهارات وأنماط سلوكية، وكذلك وجود الدافعية الاجتماعية.

إن الخصائص النمائية لتكون الوعي الذاتي عند تلاميذ المرحلة الابتدائية تكون مشروطة وبدرجة كبيرة بنضج ونمو الأسس الفزيو- عصبية.

إن عدم نضج الجهاز العصبي- النفسي يحد في مستوى معين إمكانيات نشاطه المستقل، ويجعل سلوكه متقلباً، وغالباً ما يكون غير قابل للضبط والسيطرة، وأثناء التقييم المستقل لا يعتمد أطفال هذا السن على البراهين المنطقية، بل على معطيات الملاحظة والإدراكات المباشرة، وذلك انطلاقاً من الدلائل والسمات الخارجية للموضوعات والظواهر.

لا يوجد الوعي الذاتي بمفهومه العام وبوصفه "منظومة ضبط ذاتية مغلقة نسبياً (رزفيتسكي) في هذه المرحلة، وفي هذا المستوى النمائي، ولكن توجد فروض



ومقدمات لظهوره في هذه المرحلة.

إن المستوى اللاحق لتطور الوعي الذاتي للشخصية يختلف نوعياً عن المستوى الأول ويرتبط بمرحلة جديدة - هي مرحلة تكون الوعي الذاتي في مرحلة المراهقة وبالتحديد تظهر في هذه المرحلة الحاجة إلى الوعي الذاتي، ولا ينتشر انعكاسه فقط على "الأنا" الخاصة (من أنا، ما هي قدراتي وإمكاناتي، لماذا بمقدوري احترام ذاتي؟) بل وعلى مكاني في هذا العالم (ما هي مثلي الحياتية، ماذا أرغب بأن أكون؟). كل هذه التأمّلات تبدو في الإجابة على المطالب التي تتجسد في الإجابة على المطالب التي يظهرها المراهقون، وتعبّر عن محاولة لفهم ما الذي يعرقلهم، وماذا يجب عليهم فعله، من أجل تلبية هذه الاحتياجات، ويقع في مركز اهتمام المراهقين التصرفات والسلوكيات التي تعكس علاقة المراهق تجاه الناس المحيطين والمطالب الاجتماعية المتجسدة عبر الموقف من الذات، وبشكل آخر، يمكن القول أن التفكير بالذات وبخصائصها وسماتها يعد ميزة خاصة للوعي الذاتي لشخصية المراهق.

إن التحليل الذاتي والضبط الذاتي لا يتعارضان مع بعضهما البعض، إن لهما دوراً آخر: إذ يعتبران بمثابة ضمانة للسلوكيات السيئة، وخلافاً لتلميذ المدرسة، الابتدائية تظهر عند المراهق نزعة إلى التأكيد الذاتي Self-Assertion "بأنه" الخاصة، إن الحاجة والقدرة على فصل الذات وتميزها تشكل تصوراً حول الذات بوصفها شخصية مستقلة تدل على التطور اللاحق للوعي الذاتي وتخلق حاجة لتحقيق إمكانياته بشكل ما.

إن الحاجة إلى التأكيد الذاتي يمكن أن تتجسد في أشكال متباينة وفي مواقف مختلفة حيث وردت بعض الوقائع كمثل العناد، وعدم الطاعة، والنزوات وسط تلاميذ الصف الخامس الابتدائي (كراكوفسكي، 197، ص 6).

إن البحوث التي أجريت من قبل (كونيتسينا، ريلكو) أبانت أن الحاجة إلى التقويم الذاتي Self-Evaluation تكون مرتبطة بالخصائص النمائية للمراهقين (معرفة المراهق عن جسده، وعن خصائص مظهره الخارجي، نمو الذاكرة، الخصائص والسمات الإرادية)، وكذلك مع مستوى نموه الاجتماعي (مركزه في المجتمع، والجماعة، استيعاب الأدوار والوظائف الاجتماعية الجديدة).

إن قدرات المراهق المتنامية للتأكيد الذاتي والاستقلالية يمكن أن تفسر قبل كل شيء باتساع خبرته العملية، بالوضع الجديد للتربية - الاجتماعية .  
يلعب المراهق أدواراً مختلفة، كما يعتمد عليه في أعمال أكثر مسؤولية بشكل مستديم، وهو مضطر لأن يقوم "باختبارات" غاية في التنوع، ويحتك بشرائح مختلفة من الناس، وبمتطلبات متباينة، كل هذا يحتم عليه وضعا أخلاقياً خاصاً، ويجعله أكثر "تحصيناً"، كما أن الثبات في السلوك الأخلاقي يساعد على الضبط الذاتي الأخلاقي للسلوك.

إن السمة التي تميز مرحلة المراهقة تتمثل بتكون الوعي الأخلاقي، والمشاعر الأخلاقية (الواجب، الضمير...) والوعي الذاتي الأخلاقي. لقد لاحظ (كروتيتسكي) في دراساته عن المفاهيم الأخلاقية عند المراهقين وجود "مستوى عال للوعي الأخلاقي في هذا العمر (كروتيتسكي، 198)."

وفي هذا المستوى المذكور أعلاه، تم وضع أسس ومبادئ القناعات، وتشكل الاتجاهات الأخلاقية للشخصية، التي تجعل المراهق موجوداً بصورة مستقلة.  
وفي البحوث الاجتماعية- التربوية التي أجراها كل من (مالكو فسكي، ليسوفسكي، موتسافوي، اومانوفسكي، برنارديفسكي، نيفلثين وآخرين) أوضحت المستوى العالي للاتجاهات الاجتماعية للمراهقة المتأخرة - وهذا إدراك لمكانتها في حياة الناس الآخرين، والحاجة المتكونة في النشاط الاجتماعي المفيد...  
تتجلى استقلالية المراهق في طبيعة تقديراته وتقييماته الذاتية، وفي تقدير سلوكيات الناس الآخرين، حيث يجهد المراهق في الاستهداء والاسترشاد بمعايير الخاصة مع الأخذ بعين الاعتبار الخبرة والتجربة الشخصية .

إن تقويم المراهق يكون أكثر نقدية وانتقائية من تلاميذ المرحلة الابتدائية، فالتقويم الذاتي لتلاميذ ما قبل المرحلة الابتدائية وتلاميذ المرحلة الابتدائية، يبنى بالأساس استناداً إلى آراء الناس المحيطين بهم، وتعتبر تلك الآراء المصدر الوحيد لتكون الموقف الخاص تجاه الذات، وفي اكتساب الطفل للخبرة الحياتية يتجلى مصدر آخر لتكون التقدير الذاتي وتقدير نتائج النشاط الخاص.

إذاً فالتقويم الذاتي لمرحلة المراهقة لا يركز فقط على إنجازاته ومكتسباته الخاصة، بل ويتوقف على القواعد والمعايير والقيم السائدة في المجتمع

والجماعة.

إن عملية تكون الوعي الذاتي ناقصة ولم تكتمل بعد، وهي متوقفة على النضج البيولوجي والاجتماعي للفرد.

إن تناقضات مكانة المراهق الاجتماعية - النمائية (وخصوصاً في مرحلة المراهقة المتأخرة) تؤدي إلى تناقضات تطال سماته النفسية، فمن الجانب الأول يمتلك المراهق القدرة على الاستقلالية، وخصوصاً في رغباته وحاجاته ومثله، وأساليب نشاطه؛ ومن الجهة الأخرى ليس بمقدوره أن ينجز العمل بمفرده، وذلك بسبب نقص الخبرة الحياتية وضعف الإرادة .

ولا تزال صورة الذات غير متبلورة بعد، ولم تتكون وجهات نظر ثابتة تجاه ذاته وإمكاناته، كما لا توجد لدى المراهقين مبادئ داخلية ثابتة، وقناعات يمكنهم أن يهتدوا بها في تقويماتهم وسلوكياتهم.

إن النزعة عند المراهقين، وخصوصاً في مرحلة المراهقة المتأخرة، تؤدي إلى تأكيد نفوذه، وكذلك النزعة إلى الاستقلالية غالباً ما تقتصر بوعي ذاتي غير محدد (ومن هنا - النزعة إلى بعض الامتثالية، والتقلبات، والليونة والمرونة تجاه آراء الناس الآخرين، وخصوصاً الأصدقاء والزملاء منهم).

إذا يتسم المستوى المدروس بتكون شديد للشخصية، ولكن بصورة عامة لا يحمل الوعي الذاتي طابعاً غير ناضج وغير متطور، كما لا يملك الوعي الذاتي صفة الكمال المتقن والاستقلالية الداخلية.

وترتبط مرحلة الشباب بصورة نوعية بمستوى آخر للوعي الذاتي: "إذ يقترب طفل المدرسة الابتدائية ونمو جهازه العضلي من الشكل النهائي للراشد، إنه يمتلك قوة كبيرة نسبياً وضبطاً للذات، وسرعة كبيرة في الحركة، ويصبح جاهزاً تماماً للنشاط العملي" (شاخفروف، 1958، ص21).

وفيما بعد يكتسب الدماغ شكله النهائي، ويكتمل نمو الأنظمة الوظيفية للدماغ، ويتحدد نمط منظومته العصبية بشكل نهائي .

وتتجلى عند الشباب انفعالات وإحساسات متعددة وتغلغل عميق في جوهر الأشياء والظواهر المدروسة، وكذلك في سلوكيات الناس الآخرين، كما يتحسن في هذه المرحلة النشاط الإرادي الذي يتجلى في تحديد سلوكياته والذي لا

يخضع لضبط المحيطين. ولا إلى المؤثرات العابرة أو عن طريق الصدفة، بل انطلاقاً من قناعاته الخاصة، ومن معارفه وتصوراته عن كيفية التصرف في المواقف المماثلة.

إن ما يميز الطلبة الدراسيين هو القدرة على ضبط النفس ورباطة الجأش، حيث تظهر هذه القدرة في احترام الذات وتحقيق ما اتخذته من حلول وقرارات، والتغلب على ضروب الكسل والمخاوف التي تعتريه، كما تكتسب القناعات الراسخة والصلبة، ووجهات النظر المتشكلة حول مهام الإنسان في الحياة، وكذلك الكرامة الإنسانية أهمية كبيرة في التغلب على الصعوبات الناشئة.

تتكون بالضبط في مرحلة الشباب العقيدة الأخلاقية بوصفها نواة الوعي الذاتي للشخصية، وهكذا يمكن القول أن تطور الوعي الذاتي على المستوى المدروس يتطلب النضج الفسيولوجي النفسي للفرد، وهو متوقف على نمو مقدار القوة، وتكامل الشخصية.

تتسم هذه المرحلة النمائية بظهور شروط اجتماعية جديدة، إذ يؤثر النشاط التعليمي بشكل أساسي على شخصية الشباب، علاوة على ذلك تأثير النشاط العملي، وأيضاً الاندماج النشط في النشاط الاجتماعي السياسي.

لقد لاحظ ريزفيسكي بحق أن "أساس الوعي الذاتي للشباب يصبح ليس إدراكه لذاته شخصياً فقط، بل ونشاطه الاجتماعي أيضاً" (ريزفيسكي، 198).

إن وعي الذات كذات فقط للنشاط الجماعي مرتبط بتكون الإحساس الواعي بالمسؤولية، والواجب أمام الجماعة والمجتمع.

إن تزايد الاهتمام بحياته الداخلية الخاصة، والنزعة إلى النمو المستقبلي للوعي الخلقى يقودنا إلى أن متطلبات المجتمع تصبح هي ذاتها متطلبات الشخصية للضوابط الداخلية للسلوك.

إن عمومية النزعة والاهتمام المتعاضم تجاه الذات، يسمح بالحكم على وجود آلية نفسية متكونة في مستوى نمائي محدد للوعي الذاتي وبأشكال مختلفة.

إن القدرة الواضحة للتنظيم الذاتي بالنسبة للسلوك الأخلاقي تتجلى في الاستقلالية، وضبط النفس والنشاط، إضافة إلى ذلك تتكشف في هذه المرحلة مظاهر النشاط الأخلاقي، ويتكون التقويم الذاتي، وتحاول الشخصية بأمانة أن تنجز

الواجب الاجتماعي، وتعمل بما يحقق الفائدة للآخرين، زد على ذلك أنه يقوم بذلك بكل ما يملك من قوة، ويعتقد الإنسان في هذه المرحلة من نمو الوعي الذاتي أن من واجبه تمثل قواعد السلوك السائدة في المجتمع، وفي تلك الحالة حتى عندما يكون وحيداً مع نفسه، حيث يركز الضبط الذاتي في مثل هذه الحالات على عدم الرغبة في المدح أو المكافأة، وليس خشية أن يصبح مداناً من قبل المجتمع والجماعة، بل على أساس الإحساس بالضمير والواجب.

وهكذا فإن الوعي الذاتي عند الشباب يكشف في نفسه خصائص جديدة نوعياً تخص فقط هذا المستوى، لذا فإن جودة الأفكار والنقد السليم أثناء إدراك العالم الخارجي تتواءم مع بعض السلبية وضيق الأفق في التقديرات . إن الثقة والصدق تقترنان أحياناً بالمبالغة ، والتعنت والإصرار، والتعصب تجاه الآخرين، ونقص الدقة والوضوح بالنسبة للقناعات الداخلية - أي هناك تقويمات مطلقة.

إن التحليل الذاتي الذي يسعى الفرد نحوه يمثل معالجة مفصلة لإحساساته، وأحكامه، وتصرفاته وأفعاله في كل حالة منفصلة على حدة، وإقامة صلات بين هذه الأشياء.

ينشأ التحليل الذاتي كاستجابة لعدم إشباع الإنسان سماته الخاصة المتجلية في النشاط والسلوك، كما يجد التحليل الذاتي انعكاسه في التقديرات الذاتية، إن القدرة على التقدير السليم بالنسبة لقواه الذاتية، وإمكاناته ومواهبه المتناسبة مع متطلبات المحيطين تلعب دوراً كبيراً في تكوين الشخصية ليس فقط على المستوى المدرس.

يصبح في مرحلة الشباب مؤشر نمو الوعي الذاتي متمثلاً بالوعي والوعي الذاتي الهادف والمثمر، وذلك عندما يصبح الإنسان ذاته موضوعاً للتربية، وعندما يحدد بصورة واعية في ذاته خصائص محددة على أساس المبادئ الداخلية الموجودة.

تتكون المبادئ الداخلية للشخصية، ليست فقط من خلال الاستيعاب المتوافق للمعايير الأخلاقية والمبادئ السائدة في المجتمع، بل ولاكتساب هذه الأشياء معنى شخصياً، أي بمعنى آخر دمجها في منظومة القيم الشخصية. إن المبادئ

والمعايير الأخلاقية الاجتماعية تصبح وكأنها شخصية، وتصبح معتقدات فردية، وأساساً موضوعياً في تنظيم السلوك .

وفقط وعلى مستوى الوعي الذاتي الثابت والمتكامل يتم تحقيق وحدة ما هو ذاتي مع ما هو موضوعي في السلوك، وبشكل آخر يمكن القول أن الشخصية تبدأ بإدراك متطلبات المجتمع ليس فقط بوصفها معبراً عن المجتمع، بل وبصفتها اهتمامات شخصية خاصة، وفي هذه الحالة فقط تصبح موجّهات ومحددات للسلوك.

وتظهر عند الإنسان القناعة والرضا تجاه أفعاله الخاصة وبموافقة من الجماعة والمجتمع، وفي هذه الحالة يمكن للإنسان أن يوجه ليس سلوكه الخاص فقط، بل ويتحكم بنموه، ويؤثر عليه، ويمارس نشاطه ويقوم بمبادرات ذاتية، ويمارس التربية الذاتية، يكتسب الوعي الذاتي شكلاً متطوراً وناضجاً فقط على مستوى صحيح. وفي هذا المستوى وتحت تأثير الوسط الاجتماعي، وبشكل خاص الجماعة الإنتاجية يتكون عند الشخصية وعي ذاتي ناضج.

#### خامساً: النتائج

يحقق الوعي الذاتي الناضج وظيفة ضبط الذات على أساس الوعي الذاتي الذي يتبلور في مساعدة و تهذيب الشخصية وتقويمها بشكل ذاتي، وليس الوعي الذاتي الناضج للشخصية هو المرحلة الأخيرة في تطورها، بل واستمرارها في التكيف والتبدل تحت تأثير الوعي الاجتماعي والبيئة الاجتماعية، وفي صيرورة النشاط العملي للشخصية.

وهكذا استناداً إلى المعايير الاجتماعية - النمائية استطعنا أن نحدد ثلاثة مستويات للوعي الذاتي للشخصية:

1. مستوى الاتجاهات الذاتية العادية.
  2. المستوى الشخصي ذاته.
  3. المستوى الأصيل الموجه بواسطة المبادئ الأخلاقية الخاصة.
- تتكون في المستوى الأول مقدمات تكون الوعي الذاتي، وتنشأ عناصر كمثل "صورة الجسم"، إدراك ووعي "الأنا" - الفيزيقية...

أما بالنسبة للوعي الذاتي المتنامي، فإن الميزة الخاصة تتمثل في عدم الثبات

وفي الطبيعة الموافقية .

بالنسبة للمستوى الثاني تنشأ مكونات الوعي الذاتي كمثل التقويم الذاتي، والضببط الذاتي، والموجهات القيمة ... والتي تمتلك على مستوى الوعي الذاتي الناضج صفة العقائد والمبادئ.

وبالنسبة للمستوى الثالث يقوم الوعي الذاتي للشخصية بمجموعة متكاملة من الوظائف، ويكون هدفها النهائي هو ضبط علاقات الشخصية بالناس الآخرين وبالمجتمع، وتتحقق بواسطة الوظيفة المعرفية، والمعرفة الذاتية للشخصية، التي تجتاز نسقا من المستويات :

1. من الإحساسات الذاتية إلى التحليل الذاتي، حيث تدرك الشخصية نفسها وعالمها الروحي بوصفها ذاتاً للنشاط.

2. وبفضل الوظيفة التوجيهية-القيمة للوعي الذاتي تتحقق علاقة الإنسان مع العالم ومع ذاته وتتكون التقييمات.

3. نستطيع أن نحكم حسب وظيفة العملية عن وجود مستوى متطور لهذه الوظائف والوعي الذاتي للشخصية وبالتحديد يتم الانتقال في هذا المستوى من الوعي الذاتي المثالي إلى أفعال وسلوكيات مادية. إن الوظيفة العملية للوعي الذاتي تتكشف في الضببط الذاتي، والنقد الذاتي، والتربية الذاتية، وتحسين الذات وتطويرها وتحقيق الشخصية لذاتها.

وهكذا نستطيع القول أن وظائف الوعي الذاتي للشخصية تعمل في سياق إطار موحد، حيث تتبادل التأثير فيما بينها.

إن نظرية الوعي والوعي الذاتي المبنية بشكل صحيح تعد الأداة الأقوى للتأثير على التطور اللاحق للوعي والوعي الذاتي للناس. وكذلك تعتبر الأساس النظري لتخطيط منظومات عملية لتربية الأجيال الناشئة القادرة على إحداث طفرة التقدم والتطور وتحقيق رفاهية المجتمعات والسير بها إلى معارج الرقي والتقدم.

#### =المراجع:

1. إمام ، عبد الفتاح (1982) المنهج الجدلي عند هيجل، دار التنوير للطباعة (ط2)، بيروت، لبنان.
2. انايف، ب.غ (1961) نظرية الإحساس، بيطرسبرغ.
3. بكار، عبد الكريم (2009) اكتشاف الذات، مؤسسة الإسلام اليوم للإنتاج والنشر، الرياض،

- المملة العربية السعودية.
4. بدوي، عبد الرحمن(1975) مدخل جديد إلى الفلسفة ، وكالة المطبوعات ، الكويت (ط،1).
  5. بستيينا، أ.أ (1955) من نظرية الأدب ، دار التنوير، موسكو.
  6. تشالمرز، دافيد (1997) لغز الخبرة الواعية ، مجلة العلوم، المجلد(13)، العددان (6، 7) الكويت، ص ص64- 71 .
  7. تشاماتا، ب.ت (الوعي الذاتي ونمو الأطفال، دار العلوم، موسكو.
  8. تشسناكوف، ي.ي(1977) مشكلة الوعي الذاتي في علم النفس، دار التنوير، موسكو.
  9. حمود، محمد الشيخ (2...) تقدير الذات في السلوك الدراسي لدى تلامذة المرحلة الابتدائية وعلاقته ببعض المتغيرات، المجلة العربية للتربية، مجلد(2) ، عدد (2)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص ص124-149 .
  10. ديكارت، رينيه (196). مبادئ الفلسفة ، ترجمة د. عثمان أمين، القاهرة .
  11. ساتشونوف، ي. (1947) مختارات فسيولوجية ونفسية ، دار التنوير، موسكو.
  - 11 . سيركن، أ.غ(1972) الوعي والوعي الذاتي، دار التنوير، موسكو.
  - 12 . شاخفيردوف، غ. (1958) الخصائص النمائية لنمو الأطفال الفسيولوجي والنفسي دار العلوم، بيطرسبرغ.
  - 13 . فيجو تسكي، ل (196). نمو الوظائف النفسية العليا، موسكو.
  - 14 . القاموس الفلسفي (1986) إعداد مجموعة من المؤلفين، الأدب السياسي، موسكو.
  - 15 . كاتريش، غالينا (1994) دراسة تحليلية لتقدير الذات التأملي عند طلاب المرحلة الابتدائية في مدينة موسكو، أطروحة دكتوراه غير منشورة، أكاديمية العلوم النفسية ، معهد علم النفس التربوي والنمائي، موسكو.
  - 16 . كراكوفسكي، أ.ب (197). المراهقون، دار التنوير، موسكو.
  - 17 . كرم، يوسف(1962) تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة.
  - 18 .كون، ي.س(1963) سوسولوجية الشخصية، دار العلوم، موسكو.
  - 19 . لويتنف، الكسندر (1975) النشاط، الوعي، الشخصية دار العلوم ،موسكو.
  - 20 . ماركس، كارل، أنجلس، ف(1956) من المؤلفات المبكرة، موسكو.
  - 21 .وايت، موزون (1975) عصر التحليل، فلاسفة القرن العشرين، ترجمة أديب يوسف شيش، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.